الفصل الأول

المدينة المفقودة

obeikandl.com

obeikandl.com

١

بعد أن قطع مسافة ليست قصيرة وقف . وتلفت حوله..

استدار إلى الخلف.. إلى اليمين .. إلى الشمال.. وبقـــي لحظات ناظراً مفكراً.. ثم عاد إلى الجهة الأولى..

ما هذا؟

كيف لم ينتبه إلى التغيير المفاجئ الشامل في كـــل مـــا حوله!

هذه الأرض كانت جرداء.. غبراء.. ميتة.. لا أثر فيهـــا للعشب.. ولا للشوك .. ولا ..

كان الراعي يترك زوجته ماوية، ويذهب بالغنم بعيداً.. بعيداً .. إلى شعاف الجبال .. طلباً للكلأ.

لقد دبت الحياة في ما يحيط به.

الحقول خضراء زاهية..

obeikandl.com

والشمس تدفع برفق غيمة كانت تحجبها، فتطل بوجهها الأحمر الضاحك..

وفراشات صغيرة تهفهف بأجنحتها الملونة..

وطيور كثيرة .. صاعدة هابطة..

وعصافير تملأ الروض بحركتها وشقشقتها..

ونسيم بارد يدفع العشب النامي برفق بالغ!

رفع يده اليمنى إلى جبهته يفركها .. كانت تحلي يده أسورة من الفضة.. كان حاسر الرأس .. يسترسل شعره الأسود على كتفه.

واصل سيره نحو المدينة .. راح يردد مع نفسه وقد انبهر بما رآه:

– سبحان الله.. سبحان الله .

هذا طائر النغير يمر من قربه للمرة الثالثة.. كأنه لا يريد أن يفارقه.. وتخلصت الشمس من الغيمة وارتفعت في السماء نشطة وقد زالت عن وجهها حمرة الكسل، وغمرت بضيائها الروض الزاهر.

obeikandl.com

في هذا المكان .. الذي وصل إليه الآن.. وأمـــام هـــذا المرتفع الذي ينهض على يمين الطريق.كان كـــوخ الراعـــي .. وشجرة كبيرة ليست مثمرة تقف إلى جانبه كأنها تحرســـه.. أو تظله!

ولكن لا أثر للكوخ.. ولا للشجرة !!

ماذا لو سأله الراعي عن زوجته.. عن كوخـــه .. عـــن غنمه بماذا يجيب؟!

هفَّ النغير ذو المنقار الأحمر من أمامه ، كأنـــه أراد أن يلفت نظره إلى التل الأسود الرابض على يسار الطريـــق.. رأى أطفالاً يتدافعون .. يتسابقون للصعود عليه.. وأمام التل جلـــس رجل وامرأة يأكلان طعاماً وضع على منديل أمامهما .. أشـــار بيده يحييهما، فنهض الرجل وصاح:

- تفضل .. كل معنا .

فاعتذر بأن رفع يده اليمنى ووضعها على رأسه.

هذا التل الأسود لم يكن بهذا الحجم!! كان جبلاً صغيراً أسودَ أجردَ تنتشر عند سفحه مغارات صغيرة لا يقترب منـــها أحد لا سيما في الليل خوفاً من القطط البرية

obeikandl.com

ماذا حدث؟

هل تبدلت الأرض غير الأرض؟

هل يمكن أن يتبدل كل شيء في يوم واحد؟!

في ليلة واحدة؟!

لاشك أنه ليس في حلم..

الأحلام لا تكون بهذا الوضوح..

سمع ضحكة ناعمة وراءه..

التفت بسرعة!

رأى رجلاً طويلاً أسمرَ.. تجاوز الخمسين من العمر .. يسير وهو يدندن بصوت خفيض، وقد أمسك بحبل ينتهي طرفه إلى حمار أبيض ركبه ثلاثة أطفال يرتدون ثياباً بألوان مختلفة.

كانت الضحكة الناعمة الحلوة قد صدرت من الطفل الصغير ذي الثوب الأحمر كان الأطفال ينظرون إليه بود وألفة.

سلم عليه الرجل الطويل الممدود بإشارة من يده .. وبصوت خفيض غير مسموع .. وسلم الأطفال مشيرين بأيديهم .. مع ابتسامة ونظرة حبيبة إلى النفس.

رأى من الأفضل أن يسير معهم .. شعر بشيء يشده إليهم ويقربه منهم .. إضافة إلى أن سيره معهم لا يلفت إليه الأنظار.. أما إذا سار وحده.. فقد تنتبه إليه العيون !!

يحيط بالمدينة سور كبير، يرتفع عن الأرض عشرين ذراعاً .. وخارج السور توجد أكواخ الفقراء من الناس .. بيوت صغيرة قذرة ، ومياه آسنة، وأطفال عراة، وكلاب سائبة، وقطط نافقة على أكوام من القمامة!..

في هذه البيئة يتخرج اللصوص ، وقطاع الطرق وأصحاب الحيلة والخديعة.. وهؤلاء أيضا.. تتدرع المدينة ضد الغزاة والمعتدين.. وتقذفهم بلا حساب طعاماً للسيوف .. لكي ينعم السادة والمترفون وأصحاب النفوذ داخل المدينة بالعيش الرغيد!!

سمع كلباً ينبح ..

على يمين الطريق .. وعلى مسافة ليست بعيدة رأى رجالاً يعملون.. يزرعون أو يحصدون.. كان العشب يحول بينه وبينهم فلا يراهم بوضوح .. معهم عدد من النسوة .. ومعهم كلب يسمع نباحه ولا يراه!.

obeikandi.com

أحس بحركة قريبة منه .. رأى رجلا تبدو عليه مظاهر الثراء يمتطي جواداً أدهمَ .. عندما حاذاه الرجل أطال النظر إليه.. ثم سلم عليه بإشارة من يده.. وراح يتكلم مع صاحب الحمار.. ثم التفت إليه وقال:

– هل تريد أن أحملك إلى المدينة ؟

هز رأسه شاكراً وقال :

– بل أحب أن أذهب إليها سيراً على قدمي.

ابتعد الفارس قليلاً ، ثم وقف.. لعله أراد أن يقول شيئا.. أراد أن يلوي عنان جواده ليعود .. لكنه عدل عـــن ذلـــك .. ومضى لسبيله .

بعد قليل سيشرف على المدينة .. عندما يصعد على هذا المرتفع من الأرض سيراها .. ستصل إلى أنفه رائحة المياه الآسنة .. إنها ليست صالحة للشرب ولا للغسل ، ولا لشـــيء يصـــلح للإنسان!! وستطالعه بيوت الفقراء .. إنها عبارة عن قبور كبيرة يحتمي بها هؤلاء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئا!!

أسرع في سيره فبلغ المرتفع قبل أن يبلغه الرجل الصامت مع حماره وأطفاله .

لا. . .

إنها ليست مدينته!!

هذه صغيرة جميلة تمتد بشكل أنيق رائع !!

أشجار الزينة تزيدها جمالاً..

لا..

لا أثر للأكواخ الصغيرة الحقيرة ..

ولا للناس الفقراء الذين لا يجدون ما يستر عوراتهم!

ولا للكلاب الكثيرة السائبة ..

ولا للأطفال العراة الذين يسبحون في المياه القذرة!!

أيمكن أن يجري كل هذا التحول في يوم ؟!

في ليلة واحدة ؟!

إذا لم تكن هذه مدينته.. فأي مدينة هذه ؟!

لم يطل به التأمل ، فقد لحق به الرجل وحماره وأطفاله الثلاثة..

قال صاحب الحمار:

هل زرت مدينتنا هذه من قبل؟

بماذا يجيب ؟

obeikandi.com

هل يقول له إنها مدينته التي خرج منها بالأمس ؟..

إنه لا يستطيع .. لأن كل ما حوله قد تغير..

أيكون قد جاء إلى مدينة أخرى؟!!

أضاف صاحب الحمار :

- أنت ضيفنا هذا اليوم .

أيد الأطفال الثلاثة قول والدهم:

- نعم .. أنت ضيفنا.

تبسم وقال :

- أنا ضيفكم.. ولكن لمدة قصيرة.

لم يعد الطائر الصغير ذو المنقار الأحمر يتبعه .. ارتفعت الشمس في السماء ، ودبت الحركة في كل شيء .. كان الرجال يرتدون ثيابا تختلف عن ثيابه .. كانوا يضعون غطاء على رؤوسهم .. كانت ثياب النساء تختلف عن الثياب التي يعرفها.. كانت لهجة الناس تختلف عن لهجته . رأى بعض الناس يشيرون إلى ثيابه من طرف خفي!

مضى يسير بحذر .

إنه يريد أن يعرف أين يقف ..

obeikandl.com

أين ذهبت مدينته؟!

الشوارع تبدو نظيفة .. والبيوت هادئة محترمة.. مبنية بحجارة جيدة وبعناية فائقة .. كان بعضها يبدو وكأنه صبغ بالحناء.. وإلى جانبها بيوت بيضاء.. وأخرى بلون التبن القديم .

قال بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :

– المدينة التي أعرفها .. والتي أبحث عنها.. كان لها سور كبير مرتفع.. له بوابة كبيرة تفتح في الصباح وتغلق عند المساء .. وراء السور بيوت فقيرة وأكداس من القمامة ..

وقاطعة الرجل :

– لا توجد

– ما التي لا توجد ؟

– لا توجد مدينة بهذا الوصف .

قال الطفل الكبير .. وهو يشير بيده :

– هناك بيتنا.

– ذاك الذي على ناصية الشارع ؟

– إنه إلى يمينه .. ليس تماما .. إلى يمينه في الداخل .

أضاف بعد قليل :

obeikandl.com

– سور المدينة وراء البيوت .

– أين؟

أشار الأطفال الثلاثة بأيديهم :

– هناك

– فهذه البيوت خارج المدينة ؟

– نعم .

كان الطفل الكبير يبدو في العاشرة من عمره.. يرتدي ثوباً معلماً بخطوط داكنة .. كان حنطي اللون ، مدور الوجه قصير الأنف ، مهمل الشعر .. عسلي العينين ، كثيف شعر الحاجبين .. صحيح الجسم .. لا تفارق شفتيه ابتسامة أليفة حلوة.

قفز من فوق الحمار وهو يقول :

– ها قد وصلنا .

وتدلّى الطفل الثاني .. وكان أصغر من الأول بسنتين ..، وانطلق راكضا نحو البيت . وراح الطفل الصغير يحرك يديه كالفرخ وهو يصيح:

obeikandi.com

- أنزلوني .. لا تتركوني وحدي .. أنزلني يا أبي ..!

فحمله أبوه وحطه على الأرض .. فانطلق يركض وراء أخويه ..

وتبسم الرجل وهو ينظر إلى ضيفه، وأشار بيده يدعوه :

- تفضل.

obeikandl.com

٢

بسط الملك ذراعيه وهو ينهض ، مستقبلاً ومرحباً بصديقه القديم العزيز:

- أهلاً ..أهلاً .. أبا مُجدّ.. أين كنت يا رجل .. أين كنت ؟

تقدم الإسكندري وهو يهف بخطى سريعة، واعتنق الملك وهو يقول :

- السلام على مولاي الملك .

ثم قال بعد أن قبّل الملك من جبينه :

obeikandl.com

-كنت قد أخبرتك يا مــولاي قبــل أن أســافر إلى الإسكندرية .

قال الملك ، وهو يشير إلى صديقه بالجلوس قريبا منه :

- اجلس .. اجلس .. وحدثني بكل شيء .. بكل مــا امتلأت به جعبتك من حكايات وأخبار ونوادر .. أخبرني يا أبا مُجِدّ.. متى قدمت ؟

- اليوم .. الساعة يا مولاي .

- و لم تذهب إلى بيتك بعد ؟

- رأيت أن أمثل بين يديكم قبل أن أذهب .

رفع الملك يده اليمنى معترضاً :

- لا.. لا.. كان عليك أن تذهب إلى بيتك .. فترتــاح .. ثم تأتي بعد ذلك.

- راحتي في أن أسعد بلقائكم يا مولاي .

كانت القاعة التي يجلس فيها الملك كأنها مدورة كـثيرة النوافذ تتدلى الستائر الخضر الموشاة بخيوط الحريــر عليهــا.. في صدر القاعة كرسي من الخشب المنقوش يجلس عليه الملــك .. وعلى جانبه الأيمن يجلس الوزير ، وعلى جانبه الأيسر يجلس قائد

الجند .. وبعدهما على الجانبين يجلس عدد من رجال المملكة من ذوي السن والمكانة لإبداء الرأي والمشورة اللازمة.

عاد الملك إلى صديقه:

- حدثنا بشيء مما في جعبتك ثم اذهب إلى أهلك راشداً.

- ليس لدي الكثير يا مولاي .. إلا ما كان من صاحب الإسكندرية .

- حدثنا عن صاحب الإسكندرية .

اعتدل أبو مُجدّ الإسكندري في جلسته وقال :

- أراد صاحب الإسكندرية أن يخلو إلى نفسه مدة شهر واحد.. فصرف الخدم والأتباع ومنع الزيارات. . . . .

- عجبا. . ويترك أمور الناس؟!

- إنما أراد يا مولاي أن يتنكر ويترل إلى الناس فيطلع على أحوالهم بنفسه.

- رأي صائب.

هز الوزير رأسه .. وكان نحيفا أبيضاً .. حليق اللحية .. بشارب رفيع أشقر وقال:

obeikandl.com

- نعم .. نِعْمَ الرأي .

مضى الإسكندري في حديثه:

- في اليوم التالي خرج متنكراً في زي رجل من عامة الناس ورأى أن يذهب إلى خادمه الرومي المخلص الكتام طريفوس فيأخذه معه .

كان الحاكم قد عرف منه أين يقيم .. وهو الذي أحضر للحاكم هذه الملابس التي يرتديها .. وقد وجد معها خاتما من الفضة أراد أن يعيده إليه .

عندما وصل إلى الحي الذي يقيم فيه سأل أحد المارة عن بيته .. فأجابه الرجل :

- الوزير ؟

- إنه على ما أعلم خادم الحاكم .

ضحك الرجل ساخراً من معلوماته القديمة وقال :

-كان خادماً .. أما الآن فهو وزير الحاكم الخاص .

ثم أشار بيده :

- هذا بيته..

obeikandi.com

اتجه الحاكم إلى البيت الذي أشار إليه الرجل .. وهو يتعجب مما سمع. رأى رجالاً يدخلون البيت بلا استئذان .. فدخل معهم .. فماذا رأى ؟

- ماذا رأى؟

نطق بها قائد الجند .. وقد أخذه حديث الإسكندري كل مأخذ.

- ماذا رأى؟

- رأى خادمه المخلص جداً، والأمين جداً، الساكن الصامت الكتّامة .. جالسا على أريكة في صدر البيت، وقد لبس ثوباً فضفاضاً أبيضاً .. وراح يتكلم بكثير من الكبرياء ويقول :

- نحن قررنا أن نخلو إلى أنفسنا مدة شهر .

سأله رجل .. قصير نحيف قد احتبى بردائه :

- لماذا؟

نظر إليه الخادم غاضباً :

- جهلة..

وحرّك يده اليمنى بشكل دائري كالمتعجب :

- أتريدون أن أفسر لكم كل كلمة أقولها .. ؟

كان الخادم يتكلم بلهجة تشبه لهجة الحاكم .. كان يحاول أن يقلده في الصوت والحركة والإشارة .. والرضى والغضب .

كان عدد الرجال الذين حضروا مجلسه كبيراً .. ربما يتجاوز الثلاثين رجلا .. كانوا يجلسون على الأرض ، ينظرون إليه بإعجاب .. وقد اندسّ الحاكم بينهم وهو يخشى أن ينظر إليه الخادم فيعرفه .

صاح طريفوس :

– يا غلام .

حضرت امرأة سمراء مهملة الثياب .. شعرها أسود مفلفل .

– نعم يا مولاي .

– قدمي لضيفونا عشاءً .

– سمعا وطاعة يا مولاي .

ذهبت المرأة .. وهي تلقي على الحاضرين نظرة عابرة .. كان يتحدث وهو رافع الرأس ، شامخ الأنف ، كأنه يخشى أن تواجهه العيون بما يكره .

obeikandl.com

عاد الخادم يتحدث :

– دعاني الحاكم فقال : إنني أشعر بالتعب من مواجهة الناس ..

فماذا ترى؟

قلت : عليك أن تخلو إلى نفسك مدة شهر واحد فترتاح.

فأخذ بنصيحتي وأعطاني خاتمه لكي أمضي الأمور المستعجلة .

وأخرج الخادم من تحت الوسادة خاتما وقال :

– انظروا .. هذا خاتم الحاكم .. لا يصدر أي أمر .. أي عمل .. ولا ينفذ إلا إذا ختم بهذا الخاتم ..

وأشار بيده إلى صدره:

– وأنا الذي أختمه .

سكت قليلاً .. ثم تنحنح.. ثم أضاف بكبرياء :

– إذا شئت!!

ثم مدّ يده بالخاتم إلى اقرب رجل .. ومال بجسمه وقال :

– انظره .

أخذه الرجل فنظره وقلبه وأعطاه إلى الرجل الـــذي إلى جانبه .. ثم إلى الآخر .. والآخر .. حتى وصل إلى الحـــاكم .

دهش الحاكم !!

إنه خاتمه الذي ضاع منه قبل عامين .. وظن أنه ســـقط منه في النيـــل !!

أخذ الحاكم الخاتم وأبدله بكل خفة بالخاتم الذي وجده في الثياب، ولما وصل إلى الخادم أخذه ووضعه تحت الوسادة دون أن ينظر إليه .

عاد الخادم فصاح:

– أيها الغلام ..

حضرت امرأة أخرى .. قصيرة نحيفة بيضاء .. شـــدت شعرها بشريط من الحرير .

– نعم يا مولاي .

– أين العشاء؟

– إنهم لا يريدون يا مولاي .. لقد تناولوا العشـــاء في بيوتهم .

– أحضروا نبيذاً .

طرح الحاكم جانب الحذر وسأله :

- ما وظيفتك عند الحاكم ؟

- وزيره الخاص .

قالها بسرعة .. ودون أن يلتفت . ثم اعتدل في جلسته وواجه الرجال وقال بصوت خفيض :

- إنها وظيفة لا يريد الحاكم أن يعلم بها أحد من الناس إنه لا يبرم أمراً ، ولا ينفذ عملاً .. ولا يرسل كتاباً . . . إلا بعد أن أبدي فيه برأي .

- فأنت مستشاره الخاص .

- بل وزيره الخاص

قالها بقوة وغضب وهو ينهض واقفاً :

- متى تتعلمون ؟ !

عاد الحاكم تلك الليلة وهو يضرب كفاً بكف .. إذا كان هذا الخادم .. الذي ليس له شأن .. والذي ظن أنه آخر من يخونه .. أو يكذب عليه.. قد سرق الخاتم .. وقام في حيه يتحدث وكأنه الحاكم .. بل أعلى سلطة من الحاكم .. فكيف بغيره وغيره وغيره؟!!

obeikandi.com

سكت الإسكندري ، وراح ينظر إلى تأثير كلامـــه في الحاضرين .

كانوا متلهفين إلى سماع بقية الحديث ..

- ماذا حدث بعد ذلك ؟

- ماذا فعل الحاكم ؟

أجاب الإسكندري :

- رأى أن يطوف على رجاله أولاً .. لــيرى كيــف يتصرف كل منهم في غيابه .

- فماذا رأى ؟

- رأى كل العجب ..

لم يعرفه منهم أحد ..

رأى الإهانة والطرد والضرب .. والدفع .

رأى الخيانة والرشوة والمحسوبية ..

رأى الظلم ضارباً أطنابه في كل مكان !!

وعندما قال لصاحب الشرطة :

- سأشكوك إلى الحاكم .

صرخ في وجهه بكل وقاحة وقال :

- إذا جاء الحاكم فسأضعه في السجن !!

هتف قائد الجند:

- لم يعرفه أحد منهم ؟

- أبداً ..

ثم استدرك الاسكندري فقال:

- بل عرفته امرأة .. كانت قد قابلته مرة .. رجتـــه أن يطلق سراح ابنها من السجن .. رأته في الطريق فصاحت:

- سيدي الحاكم

وعادت تعرض عليه قضية ولدها :

- إنه بريء .. ثق يا سيدي إنه بريء.. ابن صـــاحب الشرطة اعتدى على الرجل بالضرب حتى مات تحت يده .. فلم يلبثوا حتى اتهموا ولدي لأنه كان قريباً من الحادث ، وشـــاهده بعينه .

طمأنها الحاكم وقال :

- سأطلق سراح ابنك غداً .

- قبل نهاية الشهر ؟

- لا .. كان ذلك في آخر يوم من الشهر .

obeikandl.com

راح الملك يردد بصوت خفيض:

- ويل للحاكم من بطانة السوء .. ويل للحاكم من بطانة السوء . قال الإسكندري وقد سمع كلام الملك :

- إذا صلح الملك صلحت بطانته يا مولاي .. فإنما يجلب إلى السوق ما ينفق فيها .

- صدقت .. ولكن يبقى الملك في مقام المسؤول الأول أمام الله

- إذا كان الملك صالحا، عادلاً ، رحيما ، رفيقا بشعبه .. لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يضعهم إلا على الطريق الذي يحبه الله .. فإنه إن شاء الله سينال مترلة في الجنة .

تنهد الملك بحرارة وقال :

- إن الملك الذي يسير أمام الناس في الدنيا .. أخشى أن يسير وراءهم يوم القيامة .

- الملك الصالح لا يكون كذلك يا مولاي .

- وأنى لي أن أعرف إن كنت صالحاً ؟!

دخل الحاجب.. طويل القامة .. ضخم الجسم .. ضخم الصوت .. أنيق الملبس .. يحمل سيفاً قصيراً :

obeikandi.com

– على الباب رجل لديه ما يقوله لكم يا مولاي .

– أدخله .

دخل الرجل .. قصير القامة ، نحيف الجسم ، مهمل الزي ، على خده الأيسر نمش قليل . ملأته هيبة الملك فراح يرتعد، وقد تعطل لسانه عن الكلام !

أشار الملك إلى كرسي :

– اجلس.

ارتبك الرجل كثيرا ، وتسمر في مكانه لا يتقدم . فأخذ الحاجب بيده وقاده حتى أجلسه .. ومضى.

قال الملك ملاطفا .. وقد رأى ما به :

– أهلا وسهلاً ..

فلم يرد ..

جلس كالتمثال ، باسطاً يديه على ركبتيه ..

تبسم الملك وقال :

– تكلم يا رجل .. لا تخف .. إنما أنا مثلك .

ماذا تريد أن تقول

– ر..ر. . . . ر. . .

- رجل ؟

- نعم

- اعتدى عليك ؟

- لا .

- اعتديت عليه ؟

هز رأسه :

- تطلبه في حاجة ؟

- لا

- قريبك ؟

- لا .

تركه الملك لكي يستعيد رباطة جأشه ، والتفت إلى الإسكندري :

-كيف حال زوجتك؟

- أية زوجة يا مولاي ؟

- ألم تقل في المرة السابقة أنك تزوجت ؟

هز الإسكندري رأسه بأسف وقال :

- ماتت يا مولاي .

obeikandl.com

ضرب الملك بيده على الكرسي :

- أيضاً..؟!

ثم أضاف :

- لابد أنها كانت كبيرة في السن .

- بل صغيرة .. أصغر من سابقتها بست سنوات .

- قل غير هذا يا أبا مُجدّ؟

-كانت يا مولاي ما تشاء من خلق وعبادة وأدب .

- تشبه زوجتك السابقة .

- بل أكثر تدينا وخلقا .

- سبحان الله ، وماذا عن الجديدة ؟ .. لا تقل أنك لم تتزوج .

- بل تزوجت يا مولاي .

- ذات دين وخلق وعبادة وأدب ؟

- لا يا مولاي .

- لا. . ؟ !

- إنها ساذجة .. غبية بلهاء .

- يا رجل .. يا رجل .. إتق الله .

-كما أقول يا مولاي .. لا أتهمها ولا أبغي عليها .

ضحك الوزير وقال :

-كيف اخترتها إذن ؟

-كنت أعرف أباها .. رجلا مؤدبا ذكيا عاقلا ..

فظننت أن ابنته مثله !! لا سيما وأنها كانت كـــبيرة .. ربما أكبر مني بسنة أو سنتين .

قال قائد الجند ضاحكاً :

- لا تحزن .. فإنك عندما ستعود إليها لن تجدها .

- لماذا ؟

- لأنها ستكون قد غادرت الدنيا .

- اللهم آمين .

التفت إلى الرجل الجالس كالتمثال :

- ما شأن الرجل الذي جئت تخبرنا عنه ؟

- غريب .

- رجل غريب .. المدينة يدخلها غرباء كثيرون .

- ليسوا مثله .

obeikandl.com

قال الوزير ، وهو يحرك نفسه قليلا علـــى الكرســـي ، ويشير بيده :

– لقد أراد يا مولاي أن يخبرنا عن رجل غريب .. لفت نظره بشكله وزيه وهيئته .

هز الرجل رأسه وقد انطلق لسانه :

– نعم يا مولاي .. شكله وزيه وهيئته .

تنحنح الإسكندري ثم قال :

– أظن أنني رأيت الرجل .. كان يرتدي ثوبا أبيضا .

كرر الرجل الكلمة الأخيرة مردداً :

– أبيضا .

– وفوق الثوب ما يشبه المعطف مصنوع من القطيفـــة الحمراء

– حمراء .

–كان يحلي يديه بأسورة من الفضة .

– فضة

– وكان يرتدي ..

قاطعه بسرعة:

- نعم يا مولاي .. كان يرتدي .

التفت الملك إليه :

- ماذا كان يرتدي ؟

تغير وجهه .. وتلعثم .. ثم قال :

- لا أدري يا مولاي .. هو قال : وكان يرتدي .

ضحك الملك والحاضرون .. وبقي الرجل ساكتا جامدا كأنه ارتكب ذنباً .

قال الإسكندري :

- أنا رأيت الرجل يا مولاي .. كانت تبدو عليه الصباحة والوضاءة والوجاهة .

- لابد أن يكون سفيرا لأحد الملوك .

قال الوزير ذلك وهو ينهض .

أجاب الإسكندري :

-كان يسير على قدميه.

- لعل حصانه قد هلك في الطريق؟

سأله الملك :

- هل كلمته ؟

obeikandl.com

- أجل يا مــولاي .. أردت أن أوصــله إلى المدينــة فاعتذر.

- فأنت رأيته خارج المدينة ؟

- نعم يا مولاي .

أضاف الإسكندري :

-كان يتكلم لغتنا .. ولكن لهجته تختلف .. أنت تعلم يا مولاي .

قال الوزير :

- ما كان عليك أن تدعه يذهب يا أبا مجدّ .

قال الرجل .. وقد فتح كفيه وطبقهما الواحدة علــى الأخرى وحصرهما بين ركبتيه :

- أنا أعلم أين نزل .

ثم أضاف وهو ينظر إلى الملك :

- نزل عند رجل اسمه سلمى .

- اسمه سلمى ؟.. رجل اسمه سلمى ؟!

- نعم يا مولاي . إنه مزارع طيب .. توفيت زوجتــه وتركت له ثلاثة أطفال .

التفت الملك إلى الإسكندري وقال :

- أرى يا أبا مجدّ ، أن تأخذ هذا الرجل معك ، وتذهب إلى بيت المدعو سلمى وتأتي بالغريب لننظر ما شأنه .

- سمعا وطاعة يا مولاي .

obeikandl.com

٣

كان المدخل الخارجي للبيت بلا باب .. بينه وبين الباب الداخلي فسحة تركت للحمار .. دخل الوالد ففتح البـــاب ثم أشار إلى ضيفه أن ينتظر قليلاً .. فأصلح من شأن البيت بسرعة يعاونه أطفاله .. ثم دعاه .

أسرع الطفل الكبير فأخذ بيده إلى الـــداخل .. وصـــار الأطفال يتقربون إليه أكثر .. كانت الابتسامة الحلوة المرحـــة لا تفارق وجوههم وهم ينظرون إليه .

قال الكبير :

obeikandl.com

-أنا اسمي عبد الله

ارتسمت على وجه الضيف دهشة ممزوجة بفرحة .

-اسمك عبد الله ؟

-نعم .. أبي اسمه سلمى .

-وأمك ؟

-ماتت ..

أجاب الأب من مكانه وهو يحاول إعداد شـــيء مـــن الطعام . وقد هز هز الطفل رأسه :

- إنها ماتت .

أشار الضيف إلى الطفل الثاني بالسبابة :

- وأنت يا رجل .. ما اسمك ؟

- عبد الله إبراهيم .

- عبد الله أم إبراهيم ؟

-عبد الله إبراهيم .

- وأنت أيها الصغير .. اسمك عبد الله أيضا؟

هز الطفل رأسه دون أن يتكلم .

- اسمك عبد الله ؟

obeikandi.com

- عبد الله سالم

- فأنتم أسرة مؤمنة بالله .

تمتم الأب بصوت خفيض :

- الحمد لله .

حمل الوالد الطعام في إناء من الفخار وقربه :

-كلوا .. بسم الله .

قال الضيف .. وهو يرفع قطعة من الخبز إلى فمه :

- فأنتم العبادلة

ثم سأل بصوت خفيض :

- ألا تخافون الملك ؟

رفع سلمى رأسه عن الطعام ونظر إليه مستغرباً .. ثم عاد إلى الطعام دون أن يجيب ولكن الطفل الكبير أجاب :

- لا

- فأنتم أبطال .. ولكن عليكم بالحذر

- لماذا؟

-لأن الملك يقتل الناس الذين ليسوا على دينه .

في هذه اللحظة سمع طرق على الباب .

- سلمى ..

نهض الأب وهو يمسح فمه ويديه :

- نعم .

- سلمى .

ذهب إلى الباب بطيئا متثاقلا ، وفتحه وخرج .. وبعد لحظات عاد وهو يقول :

- أرسل الملك يطلبك .

هتف الشاب وهو ينهض فزعا ومنفعلا :

- أنا ؟

- نعم .

تلفت حوله كأنه يبحث عن شيء وقال :

- هل يوجد باب للخروج غير هذا؟

نهض الطفل الكبير وهو يمسح يده بثوبه وقال :

- من هنا .. تعال .. في الجهة المقابلة .

التفت الشاب إلى سلمى وقال راجيا:

- لا تفتح الباب .. ولا تخرج إليهم .. حتى أكون قد ابتعدت .. أرجوك.

obeikandl.com

– لماذا ؟

– افعل ما قلته لك .

– أفعل .

ركض عبد الله بثوبه المعلم بخطوط داكنة أمامه .. وأزاح عن موضع من الجدار المقابل أحجارا وأكياسا حتى ظهر بـــاب صغير منخفض ، استطاع الشاب أن يخرج منه بصعوبة .. وتبعه الطفل إلى الشارع الخلفي .. فودعه بعد أن شد علـــى يـــده .. ومضى الشاب وعينان عسليتان لطفل في العاشرة مـــن عمـــره تتبعانه .

عاد عبد الله ، فأغلق الباب ، وأعاد الأحجار والأكياس وراءها .. وبقي سلمى واقفا لحظات وهو لا يستطيع أن يفســـر السبب الذي هرب الفتى من أجله!!

طرق الباب مرة أخرى .

– سلمى .. أين ذهبت يا رجل .

تحرك الأب نحو الباب بخطوات قصيرة متأنية .. ثم فتحه:

– نعم .

obeikandl.com

قال الإسكندري :

- هل قلت لضيفك أن الملك يطلبه ؟

- نعم .

- هل سيخرج؟

- لا .

- لماذا ؟

- لأنه هرب .

- هرب ؟..لماذا ؟

- خافكم .

- خافنا؟

- نعم

- لماذا خافنا؟

- لا أدري

-هل عرفت اسمه ؟

-لا .

صاح الإسكندري وقد نفد صبره:

- ألا تستطيع أن تجيب بأكثر من كلمة ؟ تكلم يا رجل

obeikandl.com

– ماذا أقول ؟

– كل ما تعرف .

– ماذا أعرف؟

– من أين جاء .. وماذا يريد .. ومن أي بلدة هو .. ؟
تكلم .. بالله عليك .

– إنه يخاف الملك .

– لماذا ؟

– قال إن الملك يقتل الناس الذين ليسوا على دينه

– من أين جاء ؟

– رأيناه في الطريق فانضم إلينا .

– إلى أين يريد؟

– لا أدري .. لم يقل..

ثم أضاف كأنه تذكر شيئا:

– إنه .. إنه ..

استحثه الإسكندري :

– يا سلمى تكلم .. أرجوك .

– إنه ..

obeikandl.com

- نعم ..

- أظن ..

- ماذا تظن .. ماذا تظن يا رجل .. ماذا تظن ؟

- أنه من أولاد الملوك .

- أريد أن أسأل الأولاد عنه .

- تفضل.

obeikandl.com

٤

-لقد هرب يا مولاي .

-الغريب ؟

-نعم .

-لماذا ؟

سأل الملك بكل اهتمام .. وارتسم السؤال على عيـــون الحاضرين ولامس شفاههم .

-لماذا هرب؟

-عندما سمع أن الملك قد أرسل في طلبه خاف وهرب..

فهو متهم .. أو مدان .

قال رجل كبير كان جالسا مغمض العينين كأنه نائم:

-لعله مر بظروف صعبة جعلته لا يثق بالناس .

قال الإسكندري وهو يحاول أن يشرح الموقف:

-لقد ذكر سلمى كلمة غريبة :

قاطعه الملك :

-قل أية كلمة؟

-قال الغريب .. إن الملك يقتل الناس الذين ليسوا على دينه .

-فهو من بلد يحكمه ملك ظالم !

هز الإسكندري رأسه :

-هذا ما تبادر إلى ذهني يا مولاي .

أضاف الإسكندري :

-ولكن زيه .. زيه يا مولاي يختلف عن زينا . . . ولا يشبه زي أي من البلاد التي تجاورنا .

-فهو من بلد بعيد .

استدرك الملك فقال :

obeikandi.com

-لكنك قلت إنه يتكلم لغتنا .

-نعم .. ولكن لهجته تختلف قليلا عن لهجتنا .

-لا بد من العثور عليه لنعلم منه جلية الأمر .

تذكر الإسكندري شيئاً فقال :

-عندما سأل العبادلة عن أسمائهم .. قال : فأنتم أسـرة تؤمن بالله

-من العبادلة ؟

-أولاد سلمى .. عبد الله .. وعبدالله إبراهيم .. وعبـد الله سالم ..

التفت الملك إلى جلسائه :

-ماذا ترون ؟!

تحفز رجل قصير كان يجلس إلى جانب الرجل المغمض العينين كالنائم وقال :

-إنه هارب من بلد يحكمه ملك كافر .

-لكنه وصل إلى بلد مؤمن يحكمه ملك مؤمن .. فمـم يخاف؟!

obeikandi.com

ظلت علامة الاستفهام الكبيرة تدور على وجوه الحاضرين دون أن يجدوا لها جواباً .

تنحنح الوزير .. واعتدل على كرسيه ثم قال :

-إننا لا نستطيع أن نجزم بشيء حتى يقف الرجل الغريب بين أيدينا، فنسمع منه كل شيء.

أجاب قائد الجند :

-وإذا كان الغريب قد هرب؟

-إنه ما زال داخل المدينة .. وعلى جنودك العثور عليه .

أطرق الملك ملياً .. ثم رفع رأسه بعد أن ساد صمت طويل ووجه كلامه إلى قائد الجند :

-مر رجالك بأن ينتشروا بين الناس .. فيبينوا لهم صفة الغريب ..

كل رجل .. وكل امرأة .. وكل أحد .. لديه أية معلومات عنه .. يأتي إلى هنا للإدلاء بها .. وبلا تأجيل .

نهض قائد الجند .. وكان طويلاً جسيماً .. على الجانب الأيمن من جبهته أثر ضربة بسيف . وخرج بعد أن عدل هندامه وقال بصوت خفيض:

-أمرك يا مولاي .

ثم التفت الملك إلى الإسكندري وقال:

-اذهب الآن إلى أهلك .. وعد إلينا بعد أن تأخذ قسطا من الراحة..

-بل سأبقى يا مولاي . . . أريد أن أرى نهاية هذا الحادث الغريب.

* * *

obeikandl.com